

المُعَادَلَاتُ الصِّفْرِيَّةُ الْحَدَاثَةُ، مَا لَهَا وَمَا عَلَيْهَا

خَلَفَ هَذَا الْجَبَلَ الشَّامِخَ، عَظِيمَ الْقَدِّ الْمُتَأَنِّفِ قِمَّةً بِيضَاءً لَا تُدَانِي، وَإِدْ سَحِيقٍ يَسَاوِيهِ عَمَقًا وَيَعَادِلُهُ رَهْبَةً وَظُلْمَةً. كَذَا هِيَ نَجَاحَاتُ الْإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ. هِيَ لَا شَكَّ عَظِيمَةٌ، تَحَاكِي هَذَا الْجَبَلَ رَهْبَةً وَهَيْبَةً. بَيِّدَ أَنَّ هَذَا هُوَ ظَاهِرُ الصُّورَةِ، وَاجْهَةُ الْهَيْكَلِ. وَأَمَّا مَا خَفِيَ خَلْفَ الْجِدْرَانِ الْمَرْمَرِيَّةِ فَهُوَ الْأَهْمُ الْأَعْظَمُ. فَخَلَفَ هَذَا الْبَرِيقَ الْمُبْهَرُ يَكْمُنُ سَوَادٌ وَظُلْمٌ وَقَسْوَةٌ لَا حُدُودَ لَهَا. وَدُونَ قَوَاعِدِهِ شَقٌّ فِي الْأَرْضِ عَمِيقٌ جِرْحًا فِي وَجْدَانِ الْبَشَرِيَّةِ لَا يَلَامُ أَبَدًا.

فَتَعَالَوْا مَعِي نَقْفُزْ فَوْقَ الْأَسْوَارِ الذَّهَبِيَّةِ لِمَمْلَكَةِ الْإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ. نَقَاوِمُ خِدَاعِ الصُّورَةِ وَغَوَايَةِ الْبَرِيقِ، نَنْبِشُ مَا خَفِيَ وَرَاءَ بَدِيعِ الْهَيْبَةِ وَجَمِيلِ الْمَظْهَرِ. فَعَسَانَا نَخْلُصُ إِلَى مَا يَنْفَعُنَا، وَيَكُونُ فِيهِ خَلَاصُنَا نَحْنُ الْبَشَرُ.

ظَاهِرُ الصُّورَةِ

حَقًّا، اخْتَلَفَتْ حَيَاتُنَا الْيَوْمَ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْذُ زَمَنِ لَيْسَ بِبَعِيدٍ. فَالْيَوْمَ، أَصْبَحَ الْبَعِيدُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. نَكَاثُ مَهْجَةِ الْفَوَادِ فِي أَقَاصِي الْبِلَادِ وَكَأَنَّهُ يَفْتَرِشُ الْأَرِيكَةَ قُرْبَنَا. نَنعَمُ بِدَفْعِ صَوْتِهِ. وَتَغْتَسِلُ عِيُونُنَا بِنُورِ طَلْعَتِهِ، وَهُوَ السَّاكُنُ فِي آخِرِ الْأَرْضِ حَيْثُ مَعِيشُهُ وَمَسْتَقَرُّهُ. هَبِ الصُّورَةُ لَمْ تُغْنِ عَن عِنَاقِ الْحَبِيبِ، وَلَمْ تَلْبِ حَاجَاتِ بِنَفْسِ غَلَابَةٍ، مَا هِيَ إِلَّا سَاعَاتٌ قَلِيلَةٌ وَتَغْدُو الْأَمَانِيُّ وَاقِعًا. وَيَصْبِحُ الْحَبِيبُ مُطَوَّقًا بِأَذْرَعِ الرَّغْبَةِ وَالْحَنِينِ. فَالرَّيْحُ أَصْبَحَتْ مَرْكُوبَ أَيَّامِنَا، وَغَدَتْ السَّرْعَةُ عِنَاوَانًا لِعَصْرِنَا. أُخْتَزَلَتْ الْمَسَافَاتُ، وَقُرْبُ الْبَعِيدِ السَّحِيقِ حَتَّى أَصْبَحَ وَالْخُلْمُ مَقْدَارَ ذِرَاعٍ مَنَّا أَوْ كَادَ.

أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، لَقَدْ طَغَى الْبَصْرُ وَاشْتَدَّ شُعَاعًا، فَامْتَدَّ يَنْبِشُ الْبَعِيدَ الْعَصِيَّ كَمَا الْغَائِرَ الْمُسْتَرْتَرَ. أَصْبَحَتْ الْعَيْنُ تَقْشَعُ مَا كَانَ مَحْجُوبًا عَنْهَا عَتِيًّا. فِي الْفَضَاءِ، فِي أَعْمَاقِ الْبِحَارِ، وَفِي بَوَاطِنِ الْجَسَدِ، بَانَ مَا اسْتَقَرَّ الْإِبْهَامُ زَمَنًا مَهُولًا. أَضْحَى الْخَفِيُّ الْمَجْهُولُ كَمَا الْقَصِيُّ الْمُلْتَبِسُ قَرِيبًا مَنْظُورًا.

فَالْعَيْنُ تَنْظُرُ قَادِرَةً وَجَهَ الشَّمْسِ الْمُحْتَقِنِ. تَرَقُبُ عَن كَتَبِ تَمَلُّمِهَا رَاسِمَةً مَوَاقِيَتَ تَفْجُرُهَا الْقَادِمُ بَدَقَّةً مَا أَمَكْنَ. الْكَوَاكِبُ وَالنُّجُومُ أَضْحَتْ جَمِيعًا رَصَدَ عَيْنٍ وَمَحْرَقَ عَدْسَةٍ. مَخْلُوقَاتُ لَطَالِمَا جَهَلْنَا وَجُودَهَا فِي الْبِرِّ وَالْبَحْرِ، غَدَتْ أَسْمَاءً اسْتَقَرَّ اهْتِمَامُ الْبَاحِثِينَ وَاسْتَحَالَتْ نَقْشًا فِي مُدْرِكِ الْعَالَمِينَ. حَقًّا! لَقَدْ اتَّسَعَ الْكُونُ فِي مُدْرِكِنَا، وَتَعَاظَمَ شُرَكَاءُ الْوُجُودِ كَمًّا وَعَدِيدًا مِنْ حَوْلِنَا. فَالْعَقْلُ بِالصُّورِ الْوَالِدَةِ وَالْأَسْمَاءِ الْجَدِيدَةِ حَتَّى ضَحَّ الْفِكْرُ بِجَمْعِ الْوَاقِدِينَ وَعَظِيمِ الْمُحْتَشِدِينَ.

وَتَقَدَّمَتْ الْعُلُومُ الطَّبِيبَةُ عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مَسْبُوقٍ. فَكَثِيرٌ مِمَّا اسْتَعَصَى عِلَاجُهُ قَدِيمًا بَاتَ الْيَوْمَ نَسِيًّا أَمْ أَثَرًا فِي ذَاكِرَةِ الْأَيَّامِ. فَالْقَاتِلُ الْمُرِيبُ بِالْأَمْسِ الْقَرِيبِ، فَقَدْ أَنْبَابَ الْأَذْيَةِ وَغَدَا الْآنَ يَنْسَوُلُ رَحْمَةً خَالِقِهِ. حُرُوبُ اسْتَبَاقِيَّةٍ وَأُخْرَى أَنْيَّةٌ اكْتَسَبَتَا الْإِنْسَانَ الْمُعَاصِرَ نَصْرًا مَحْسُوسًا ضَدَّ خَوْفِهِ الْأَزَلِيِّ الْمَرَضِ، وَإِنْ يَكُ إِلَى حِينٍ عَلَى مَا يَبْدُو.

كَذَا هُوَ الْحَالُ مَعَ الْمُتَسَلِّلِ الْخَبِيثِ، وَالَّذِي لَطَالِمَا احْتَرَفَ الْفَجَاءَةَ فَأَقْلَقَ هُدُوءَ الْغَافِلِينَ وَخَتَمَ حَيَاةَ الْكَثِيرِينَ، فَضَحَتْهُ عَيْنُ الرَّصِدِ. فَاشْهَرَتْ عَلَيْهِ بَاكِرًا دَفَاعَاتِهَا فَأَمْسَى بِلَا حَوْلٍ وَلَا قُوَّةٍ أَوْ كَادَ. حَتَّى مَا كَانَ مِنْهَا فَتَاكًا قَبْلًا، أَفْهَمَ قَسْرًا فَضْلَ التَّوَاضِعِ كَمَا وَفَضِيلَةَ الْقَهْقَرِيِّ.

لَقَدْ قَفَزَتْ الصَّنَاعَاتُ الطَّبِيبَةُ وَجَادَتْ عَلَى عَمَلِ الصِّحَّةِ بِبَدِيعِ الْكُوشَفِ وَأَجْهَازَةِ الرُّؤْيَةِ. لَمْ يُتْرَكْ شَيْءٌ صَغِيرًا كَانَ أَمْ كَبِيرًا لَمْ يَنْلِ نَصِيبًا مِنَ الْبَحْثِ وَالِاسْتِقْصَاءِ. فَمَا كَانَ مَرْتَبًا فِي هَوَامِدِ الْبَدَنِ حَصْرًا، أَصْبَحَ الْآنَ يَنْظُرُ حَيًّا عَامِلًا. يُرْقَبُ الْوَارِدُ كَمَا وَيُقَاسُ الصَّادِرُ. تُمْتَحَنُ سَلَامَةُ الْبَنِيَانِ وَتُقَرَّرُ كِفَاةُ الْأَفْعَالِ.

اخْتَرَقَتْ عَيْنُ الْإِنْسَانِ الْفَاحِصَةَ مَجَاهِلَ الْجَسَدِ الْحَيِّ، فَاقْتَحَمَتْ دِيَجُورًا وَتَسَلَّتْ سَرْدَابًا. هَتَكَتْ حَيَاءَ كُلِّ حَيٍّ اسْتَنْتَرَ، وَاسْتَبَاحَتْ حَرْمَةً مِنْ كَانَ قَبْلًا عَصِيًّا عَلَى النَّظَرِ. أَصْبَحَ الْعَامُّ وَالْخَاصُّ يَسْتَمْرُؤُ رُؤْيَةَ كَبِدِهِ وَكَلْبَتِيهِ وَقَلْبِهِ وَغَيْرِهَا تَعْمَلُ، وَبِسَكِينَةِ الْعَارِفِينَ تَهْجَعُ.

كَذَا هُوَ سَعْيُ الْإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ فِي الصَّنَاعَةِ وَالتَّصْنِيعِ. فَهُوَ مَذُ أَنْ اخْتَرَعَ الْأَلَةَ نَصَّبَهَا عَرْشَ فِكْرِهِ وَوَتِيرَ وَجْدَانِهِ. أَعْمَلَ فِيهَا فَنُونَ الْإِبْدَاعِ وَالتَّطْوِيرِ؛ أَعْمَلَ فِيهَا حِرْفَتَهُ. أَوْصَلَهَا قِمَمًا لَا سَابِقَ لَهَا فِي مَقْيَاسِ السَّرْعَةِ وَالْكَفَاةِ وَبِالتَّالِي الْإِنْتَاجِيَّةِ. فَكَانَ لَهَا أَنْ اسْتَبَاحَتْ الدُّورَ جَمِيعًا كَمَا مِيَادِينَ الْعَمَلِ. هِيَ فِي تَفَاصِيلِ يَوْمِيَاتِنَا صَغِيرًا وَكَبِيرًا.

نستجديها في صباحاتنا، تطردُ عروسَ الحلم تلكزُ حراسَ البيضةِ. حاضرةٌ في نهاراتنا، تغسلُ الأوساخَ تنزغُ الغبارَ
عن مداسِ أقدامنا. وفي الليلِ هي الأُنسُ والأُنيسُ مُلتهمُ الصَّجَرِ.

وقبل ذلك، اقتحمتِ الآلةُ عالمَ الصَّناعةِ فأثبتتْ جدارَةً لا نظيرَ لها. هي عاملٌ دؤوبٌ، لا يملُّ تكراراً ولا يضجرُ
رتاباً. يعملُ في جميعِ الأوقاتِ والطُّروفِ. لا يسألُ معاشاً أم تعويضَ نهايةِ الخدمةِ. قليلُ الشُّكوى، شديدُ الإذعانِ
لخالقه الإنسانِ. دقيقُ الصَّنعةِ، عظيمُ الرِّبحيةِ. مرٌّ، قابلٌ للحدائثِ عاشقٌ لها. لا ينفكُ يخلعُ ثوباً ويقنتي آخرَ
أكثرَ بهجةً. اكتسبَ أخيراً الذُّكاءَ والحكمةَ، فغداً سيبدأُ مُفوضاً أو يكاذُ.

نعم! أصبحتِ الآلةُ اليومَ السيِّدَ الحاكمَ لأمرنا. هي تتصدَّرُ لائحةَ المؤثِّراتِ على جُلِّ حاضرنا كما وعلى جميعِ القادمِ
من أيَّامنا على ما تسعى إليه. هي الآنُ الناظِمُ لحياتنا، الصَّابِطُ لإيقاعِ زماننا. لا تفتقرُ تنظُّمَ أحوالنا، تُهندسُ أيَّامنا.
ولا تنقطعُ تندسُ في دقائقِ أمورنا بلا أدنى ريبيةٍ أو صغيرِ خجلِ.

وكما قيلَ في واحدةٍ من روائعِ الكوميديا السُّوريَّةِ أن الإنسانَ أصبحَ عبداً للآلةِ. وهذا ما نُقرُّه عينُ المُحقِّقِ.
وأنَّ هناكَ قليلٌ ناجينَ من رجزِ العبوديَّةِ هذه. أمَّا هذه فتُجانبُ الحقيقةَ دونَ أن تُجافيهها بكبيرِ مُخاصمةٍ
فهؤلاءُ النَّاجونَ إن وجدوا، وهو ما ارتأبه، هُم أقلُّ من أن يُحصوا عديداً أو يُقيموها استثناءً يشينُ الصُّورةَ الكليَّةَ
لسطوةِ الآلةِ على حياتنا.

مُتمَّاتُ الصُّورةِ

لم يصلِ الإنسانُ إلى تلكمُ الحدودِ من الأبهةِ والمجدِ إلا بعد أن كَوَّمَ تلالاً من الشَّقَاءِ والألمِ لإنسانِ النُّصفِ الآخرِ
من الأرضِ. لا ريبَ أنَّ بعضَ الإنسانِ فرِحَ بما اكتسبَ، بيدَ أنَّ مُعظمَهُ في اليوسِ يرتعُ ما يزالُ. وكلُّ كلامٍ منقوصِ
البرهانِ افتراءٌ، وهذا ما لا أنسبهُ لنفسي. وللبراهينِ موثيقٌ ممَّا نعيشُهُ نحنُ البشرُ في العالمِ الآخرِ المنسيِّ قهراً
وظلماً، عالمِ النَّاسِ البُسطاءِ ملحِ هذه الأرضِ وجبليتها.

فرغمَ الحدائثِ في علومِ الطُّبِّ والطَّبابيةِ، لم يبنه إلى سمعي أبداً أنَّ الإنسانَ في بلادِ البُسطاءِ قد تنعمَ بوفيرِ الصِّحةِ
ومديدِ العُمُرِ زيادةً عمَّا كان لسلفه، أم مناظرةً لشقيقه ساكنِ بلادِ العجائبِ. فالرُّوحُ (١) لا تنفكُ تُبارحنا سريعاً،
والصِّحةُ لا تنقطعُ تزوي تحت ثقلِ المرضِ والألمِ. تقاناتُ الكشفِ والرِّصدِ خاصَّتهم بعيدةُ المنالِ. كذا هو الدَّواءُ،
نجيعها حكرهم وضعيفها ملكُ أيَّماننا. وقيلي أننا أصبحنا مرميَ لقديمهم الباليِ ومُختبراً لجديدهم القلقِ لا يُجافي
الحقَّ والحقيقةَ في شيءٍ.

وكما أُسبعتِ العقولُ ندباً وفُروحاً من مكبِّ أفكارها وفعلِ إعلامها، كذا كان فعلُ الحدائثِ في مناعتنا ضدَّ المرضِ.
فسادتها من سگانِ بلادِ العجيبيةِ والعجائبِ لا ينقطعون يروجونَ لكلِّ سلوكٍ أو مُنتجٍ مُجهضٍ لمناعتنا الفطريَّةِ.
يدافعون عنه بريفِ العيونِ. يبذلون العطايا لشركاتِ الغواييةِ والتَّضليلِ كيما ترفعُ حظَّةً من محبةِ جمهورِ البُسطاءِ.
وهو في جُلِّه سُمومٌ فكرٍ أم تهلكةُ جسدٍ.

وإني وإنْ أثرتُ التَّرميزَ وعدمَ الإنجرارِ إلى نقيصةِ التَّقييدِ حين التَّمثيلِ والتَّدلِيلِ على قبلي وذلكَ لكثرةِ الأمثالِ
والدَّلائلِ في معاشنا ويوميَّاتنا. بيدَ أنني أجدُ نفسي مدفوعاً لذكرِ الأغذيةِ السريعةِ التَّحضيرِ والهواتفِ النُّقالِ ووسائطِ
التَّواصلِ الاجتماعيَّةِ كبراهينَ ثبوتِ على ما أدعيه. فهنَّ الحاضراتُ أبداً في حلمنا وبقطبتنا، جُننا وترحالنا.
فعلهنَّ في الأبدانِ بيِّنٌ، كذا هو فعلهنَّ في الأنفسِ. فعلٌ هدمٌ لكلِّ ما هو غريزيٌّ موروثٌ. ومناعتنا حافظتنا من
المرضِ لم تسلمَ من فعلِ الغواييةِ، بل أصبحتِ واحدةً من أثرياتِ ضحاياها. وإن كنتَ من المُرتابينِ ما تزالُ،
فاسألُ ذوي العلمِ والصِّدقِ عن تفصيله وتأويله.

لا أدري! كم سيحتملُ الإنسانُ في بلادِ البُسطاءِ؟ فكيفما قلبتُ الأمرَ أجدهُ الخاسرَ أبداً. فإنسانُ بلادِ العجائبِ
حين أرادَ النُّهضةَ في علومِ الطُّبِّ والطَّبابيةِ التَّمسُّ المالَ والتَّمويلَ من إنسانِ بلادِ البُسطاءِ. فمواردهُ وإن عَظمتُ
لا تكفي مُوجباتِ رفاهيهِ ومطلوبِ البحثِ العلميِّ في الوقتِ ذاته. فانطلقَ آخونا العجيبُ يبحثُ عن مواردهِ في العالمِ
الآخرِ. فكانتِ حروبُهُ وغزواته استعماراً ونهباً لبلادِ البُسطاءِ. أزهُقُ أرواحاً، دمَّرُ أحلاماً، وهنكُ حقوقاً في الوجودِ
والرِّفاهِ. ثمَّ كانَ له أن أحدثَ ثورتهُ في العلومِ الطَّبيَّةِ. فتأمَّلْ!

حقاً! لقد نجحَ إنسانُ بلادِ العجائبِ في إنقاذِ أرواحِ المرضىِ والمُتعبينِ صحياً في موطنه، وهذا يُسجَّلُ له في سفرِ
الأمجادِ. نجحَ في إنقاذِ المرضىِ هناكَ في بلادِ العجيبيةِ والعجائبِ. بالمقابلِ، وفي ميزانِ ذلكَ، أزهُقُ أرواحَ مقاتلينِ
شبانٍ أصحاءَ أقوياءَ زادوا عن حقِّهم في ثرواتِ بلادهم وأمنِ أوطانهم هنا في بلادِ البُسطاءِ والبساطةِ.

وقد يقول قائلٌ مُتربِّصٌ فما القولُ في تحسُّنِ صحَّةِ الأطفالِ وارتفاعِ عددِ الأحياءِ منهم على ما تشيرُ إليه جميعُ البياناتِ الإحصائيةِ ذاتِ العلاقةِ؟ أقولُ نعم! هذا هو الحقُّ الذي تتخفى وراءهُ سوءَةُ الباطلِ. فإنسانُ بلادِ العجيبَةِ حمى البراعمِ ليحصدها ثماراً يانعةً في عُمرِ الشَّبابِ. رفعَ منسوبِ الحياةِ عندَ الأطفالِ، وأطاحَ به عندَ الشَّبانِ والكهولِ. فاكْتَسَبَ المالَ من ذويهم صغاراً، وبنى منهمُ المالَ عرقاً ودماً من الرُّجولةِ. ولمَّا يرحمُ في جميعِ الأزمنةِ وسائرِ الأحوالِ.

فحداثةُ الإنسانِ التي احتضنتُ أطفالنا الأوسن، هي ذاتها من تحصدهم اليومَ شباباً ناضراً ورجالاً أشداءً. رعتهم ضعفاءً عاجزينَ لا حولَ لهم ولا قوَّةَ، فلمَّا اشتدَّ ساعدُهُم رمتهُم في عينِ الموتِ جنوداً لحروبها وزاداً لآلتها الذَّكِيَّةِ. فلا تطربُ كثيراً لمرأى الرِّاعي يحملُ حملاً رضيعاً يجتازُ بهِ مُنحدراتِ الجبلِ العسيرةِ. فهو لا يرى فيه إلا ذاكَ الكبشِ كئيبِ اللَّحمِ وافرِ الكِساءِ.

وتقدَّمتِ الصِّناعةُ وازدهرتُ في بلادِ العجائبِ، وهذا يُحسبُ لإنسانها في سجلِّ الحسناتِ. تمَّ استبدالُ وسائلِ الإنتاجِ القديمةِ بأخرى عصريةً حتَّى أصبحتْ سرعةُ الإنتاجِ سمةً لهنهتِه. وغدا الإنتاجُ وبيعاً يفيضُ كثيراً عن حاجتِه، فذهب يبحثُ لها عن مستهلكٍ في العالمِ الآخرِ. لكنَّهُ لسوءِ طالعهِ لم يجدْ في بلادِ البُسطاءِ سوقاً لمُنتجِه الذي أرادَ. فحاجاتُ الإنسانِ هناكَ هي غيرُ حاجتِه، كذا هي أنماطُ المعاشِ. فعملٌ على تنميطها وجعلها على ما يرغبُ.

حملَ على عقلِ إنسانِ بلادِ البُسطاءِ، وهي حربٌ لا تقلُّ ضراوةً عن حروبِ النَّارِ. ضربَ ميزانَ المنطقِ لديهِ قوَّةَ نساءه على رجاله، حلومَ أطفاله على حكمةِ عقاله. فكانَ أنْ دانَتْ له العقولُ والأنفسُ. وكانَ له أخيراً أنْ أرغمَ الإنسانَ في بلادِ البُسطاءِ على استهلاكِ ما تُنتجُه صناعتُه جميعاً، والعسكريَّةُ منها تضميناً وتخصيصاً.

ويفيدُ هنا الإشادةُ بمناقبيَّةِ هذا الإنسانِ العجيبِ. فمن غرائبِ أفعاله أنْ يُلقِيَ بفائضِ مُنتجِه من المُستهلكاتِ البشريَّةِ الصَّالحةِ إلى حيتانِ البحرِ حفظاً لقيمتها الماديَّةِ في عالمِ السُّوقِ والأسعارِ. لكنَّهُ يَأبَى أنْ يجودَ بمثلِ هذا الفائضِ من أسلحةِ القتلِ والتَّدْمِيرِ، منتوجِ حضارتيه، إلا على أخيه إنسانِ بلادِ البُسطاءِ. فكأني من حربٍ أفتعلتُ كُرمي عيونِ مصانعِ القتلِ والتَّدْمِيرِ، وكأني من مُنتجِ استقرَّ جوفَ البحرِ حفظاً لأرباحِ الإنسانِ العجيبِ. فله من حيتانِ البحرِ عظيمُ الشُّكرِ وجميلُ الثَّناءِ، وله من أخيه الإنسانِ البسيطِ جليلُ الويلِ وفجيعُ الثُّبورِ.

لا يظنُّ أحدٌ أنْ شريكِ البلادِ هو من فصيلةِ الإنسانِ العجيبِ بالضرورةِ، أو هو في منأى عن تناولِ طموحهِ. فهذا الأخيرُ هو من القلَّةِ المُختارةِ ممَّن خلقَ اللهُ. وأمَّا الآخرُ، شريكِ البلادِ، كما إنسانُ بلادِ البُسطاءِ، فلزومُ عملٍ ووقودُ حربٍ لضمَانِ السُّطوةِ والسَّيطرةِ على جميعِ السُّوحِ والمواردِ. هي المشيئةُ الإلهيَّةُ التي أرادتُ اجتماعهما معاً في البلادِ ذاتها. بيدَ أنَّها وهي تشاءُ لم تنسَ أنْ تُفاضلَ بينهما في الحقوقِ والكراماتِ، على ما يدَّعي الإنسانُ العجيبُ طبعاً.

لشريكِ البلادِ ما يفيهِه كفافَ اليومِ، وله ما يحفظُه للبدلِ والثَّفاني خدمةً لأخيه العجيبِ. لكنَّهُ وبعدَ فورةِ الحداثةِ في الصِّناعةِ والتَّصنيعِ، وبعدَ هيمنةِ الآلةِ الذَّكِيَّةِ على ميادينِ العملِ، أصبحَ الشَّريكُ البسيطُ في العراءِ أو يكادُ. هو الآنَ يلقمُ الهواءَ، يفترشُ الصَّقيعَ. فما أفترضُ يوماً سبباً لرفاهه، غدا قاتلهُ وسبباً إضافياً لبؤسه وتعاستِه. أعطاهُ الإنسانُ العجيبُ الكفافَ لزومَ قضيَّةِ، فلمَّا زالتِ القضيَّةُ رماهَ ولمَّا يرتجفُ له خافقٌ.

واخترعَ الإنسانُ الآلةَ السَّيَّارةَ والآلةَ الطَّيَّارةَ وغيرها من آلاتِ النَّقلِ الحديثةِ كما واتقنَ السَّرعَةَ حينَ النَّقلِ والنَّقلِ بينِ العوالمِ والأوطانِ. فها هي سيارتهُ تقطعُ جلدَ الأرضِ كما وكبدَ السَّماءِ، وتُمعنُ فيهما تقطيعاً وتشريحاً. طغى سوادُ زفيرها على ألوانِ الطَّبيعةِ البهيجةِ. ملأَ غبارها أنفاسَ الأرضِ والإنسانِ على حدِّ سواءِ. اختلَّ ميزانُ الطَّبيعةِ وأنهكتُ وسائلُ دفاعاتها، فاعتلتُ. سلسالٌ أذيةٌ انطلقَ باختزانِ ضوءِ الشَّمسِ ولنْ ينتهي أبداً إلا بإطفاءِ جذوةِ الحياةِ على هذه الأرضِ المنكوبةِ.

والإنسانُ ابنُ هذه الأرضِ يألُمُ كما تألُمُ الأمُّ الحاضنُ. هو باتَ اليومَ يشتكى من عكْرِ هوائها، فسادِ مائها، كما ومن تطرُّبِ مزاجها. يتميَّزُ غيظاً من ضجيجِ المُتحرِّكاتِ على سطحِ قشريتها وفي سُمكِ سمائها. اعتلَّ فؤادهُ وفسدَ الدَّمُ في عروقه. غدا هزيباً تُهبى العُزاةُ والانتهازيةُ ممَّا خفيَ عليه صورتهُ واشتدَّ فيه فتكُه. يخرجُ من ويلٍ صحيٍّ، ليسقطُ في ويلاتٍ هُنَّ أدهى وأمرُّ.

والسَّيَّارةُ الطَّيَّارةُ، هي وإن حملتِ الإنسانَ البسيطَ ونقلتِ إليه السِّلَعِ ممَّا قد يحتاجُه في معاشه، فهي ذاتها من يرفُ إليه كلَّ يومٍ أعطياتِ أخيه الإنسانِ العجيبِ من مغلفاتِ القتلِ والتَّدْمِيرِ. هي تُلقِي حملها المُدمِّرَ في الأصقاعِ فتلقَى

الاستحسان من سيّد عجيب. تقتل وتفكك في البشر والحجر، فيكون لها الشناء والإعجاب من قلب سقيم. لا تأبه ببعيد، ولا تتأى عن حصين. الجميع في عين الموت المحموم تقدمه من سيّد البيت العجيب.

لقد أصبح عالمنا اليوم وحيد اللون، يعزف ذات اللحن الرتيب. فبعد أن كان الناس أمماً وشعوباً متميزة فكرياً وثقافياً وأنماط معاش. يتكلمون عديد اللغات، جميلها. يقاربون المحسوس واللامحسوس، المنظور واللامنظور، بطرائق قديماً. يغزلون لباسهم من خيط أرضهم، ويأكلون ما تشتهي الأنفس من كرم حقلهم. يطرحون منتوج ثقافتهم وعيشتهم جدولاً متفرداً ذا مذاق يرفد تيار المعرفة العظيم. جاءهم من مد الخيوط، نشر الأياقة البصريّة، في عروق الأرض وباطن البحار. شبك بين العوالم المختلفة والعقول المتميزة. صهر الأبحاث في مشبك أوحّد، وجعل قياده ملك إيمان. وهو بدل أن يستقي منها ويقطف الثمين النفيس من غلال بساينها، أغرقها جميعاً بفيض من منتوج الفكر الموجه.

محق الخطوط والمنعرجات تضاريس تفردتها الفكري. أسكت جميع البلايل والحساسين طراب الأصالة في خمانها. فغدا الجميع واحداً أو كادوا. واحد مأكّلهم، واحد مشربهم، واحد ملبسهم. تشابهت صورهم، وأنماط معاشهم. انمحقت لغات، تلاشت نغمات، واندثرت ثقافات بأمتها وأبيها. أدمست الألوان، جفت الصفات. انتظمت الجميع تحت راية واحدة فقيرة اللون أكلجه؛ مملكة الإنسان العجيب. واستحق جميع ما عداه بلا أدنى موارد أو تعزز صفة الإنسان البسيط.

كم أنت حاذق، أيها العجيب! وكم هي مكررة شبكتك العنكبوتية! فيها هي حشود البسطاء تذعن لأحلامك. منطوقها بات لغة أنت خالفها. ملبوسها نسج معاملك والآتك. حركتها منضبطة على إيقاع بواقك. اهتزازها رجع عزفك الرتيب. كذا فكرها أمسى يلعق ما يرميه فكرك.

لكن لا تُغال كثيراً. ستحصد يوماً مغية ما نفخ فوك وجميعاً ما أوكت يداك. فتشويه العقل لا يُحمد عاقبة أبداً. كذا هو توحيد الفكر ومنطوقه، سينتهي حتماً إلى الإفلاس والعجز. فالزمن لا ينفك يفاجئنا بجديد المحن وعسير الامتحان. وعقل متوحد، وإن تعول وتجبر، لا يقدر وحيداً على درء الخطر المتجدد دائماً. أنت بحاجة إلى من يُغرد خارج سربك، ويشد عن منطوقك وفكرك. تعلم من عبر الزمن، تفكر في قصص الأمم. فكم من حضارة طويت سطرًا في سفير التاريخ بسبب تعاميتها عن دروس التاريخ.

ميزان الحداثة مكسور

لم يكوم الإنسان عرش مجده إلا من عصابة هذه الأرض. أخذ من هنا وهناك، فاعترش ناجاً. امتص عرقاً ودماءً، فتجبر قوة وبهاء. تشرّب ألوان الأرض جميعها، فاصطبغ زهواً وفتنة. وقولي هذا تجده اليوم واقعاً في كل مخرجات الحداثة. يباغتنا وجهها الوضاح المبتسم، فؤخذ بالدهشة. نلتبس منها وصلاً عسانا ننعّم بنصيب من البهجة، تخلع عنها لبوسها ثريها. فتحصد أيدينا الهواء، وتعانق أبصارنا الخلاء.

لم يك فعل الحداثة في الأبدان بأقل من فعلها في الوجدان. ولم تجتمع الأضداد في شيء كما اجتمعت في منطوقها كما في منطوقها. فلم تدين الجميلة ليلي إلا في عرفها، والذئب في الغابة طليق. والحملان تضرس في مراعيها، والوحش من حولها عليها ضنين. يتعانق الغاي والوسيل في ثقافتها على نحو ولا أوثق. كما ويتألف في منظورها الخير والشر في وحدة لا تفاضل فيها. فالخير والشر عندها طباق.

فهي هناك في بلاد العجائب، قد بنت حتى تسامق البنيان. مكنتت، أتمنتت، فأغرقت البشرية بفيض منتجها ممّا احتاجه الإنسان وممّا لم يك له به حاجة. داوت، فأشفت وأبلت أحسن ما يكون عليه البلاء. ذوّبت المسافات، فغدا القريب والبعيد في محكم قبضة واحدة؛ قبضتها. تسللت عوالم طالما كانت خفية عصية على الإنسان. فهي هي ببارق قدرتها تُدمي وجه قمرنا البديع. وها هي مجسات حلمها حائرة في كل فضاء. تبحث عن مغنم هناك، وتتطاول لتبلغ معلماً هنالك.

وبالمقابل، هي هنا في بلاد البسطاء قد قتلت ولا تنفك تقتل. دمّرت وتدمّر، ولا يرتجف لها راجف. شوّهت الأمصار والبلدان. مزقت الموحد ولم تأنف عن المُقسّم. غالت في فعل القسمة، أرادت بلاد البسطاء بتقاً صغيرة لا حول لها ولا قوة. ففي فرقهم موثق لديمومة السيطرة وتالياً لاستنزاف الإنسان والأوطان إلى ما شاء. هي تخاف صحوّة الجياح، فتعتمد إلى حروبها الإستباقية قتلاً لروح الثورة والتغيير فيهم. سرقت الخزين كما العقول. جوّفت الأرض كما إرادة الإنسان البسيط. ببارق سطوتها ومجسات نهمها في كل مكان. تمرق الأديم، تستم خزين الأرض ثروات الإنسان البسيط. ولا من رادع، فهي السيّد الحاكم تمكيناً والعالم من حولها لفيق من الحشم والخدم ترهيباً.

ذلك ظاهر الصورة، وتلك متمماتها. الأول لامع والأخر مطموسات. فخلف الظاهر جيش قادر من البواقين ومالٍ وحقد أسود ومتاع، و خلف الثانية فقرٌ مُعترٌ وبؤس مسكين. يُطالعنا الظاهر المحسوس صباح مساءً، ونجهد لالتقاط الحقائق السود المحجوبات. يطفو الظاهر على سطح الوعي، فيتكلم. ويغور الباطن في ظلمة اللاوعي، فيكتم.

ويكون الإنسان، على ما أفرزت الحداثة، اثنين. لا يجمع بينهما إلا ما صنع الرحمن. وأما أوجه الخلاف والاختلاف فهي أكثر من أن تُحصى. تشابهها في التشريح والبنيان، واختلافها في الجوهر والمكون. اختلافها في المنطق وفي الرؤية، في الحلم والتطلعات، في الوسيل والغايات. وتشاطرا هذه المنكوبة سكتاً. هما يُناظران الوجود من زاويتين متباينتين. حدث أن تقدم الأول فامتلك النواصي، وانطلق. ووافق أن تقهر الثاني فاجترح المآسي، وانكفأ. خاض الأول معركة النفوذ والسيطرة على أتم الوجوه. ملك السوخ، دانت له الميادين. وأدعن الثاني على أمر ما يكون عليه الإذعان. الأول قليلٌ عديده ومع ذلك ساد. والثاني ملح الأرض وجبلتها، ورغم ذلك خضع. فبات الأول القليل في الرفاه ينعم، وأمسى الثاني الكثير في البؤس يألم. ولا يزال.

(1) استخدمت لفظ الروح طلباً للمجاز واستعارة لمعنى الحياة الذي تملكه في وعينا نحن البشر. فالروح هي المشيئة الإلهية في أن نكون. وهي بذلك عصية التحديد، ولا تخص الإنسان في حال من الأحوال. لمزيد من الوضوح، اقرأ مقالي: الروح والنفس.. عطية خالق وصنيعه مخلوق.

في سياقات أخرى، أنصح بقراءة المقالات التالية:

- أذيات العصبون المحرك العلوي، الفيزيولوجيا المرضية للأعراض والعلامات السريرية
Upper Motor Neuron Injuries, Pathophysiology of Symptomatology
- هل يفيد التداخل الجراحي الفوري في أذيات النخاع الشوكي وذييل الفرس الرضوية؟
النقل العصبي، بين مفهوم قاصر وجديد حاضر
- The Neural Conduction.. Personal View vs. International View
في النقل العصبي، موجات الضغط العاملة
Action Pressure Waves
- في النقل العصبي، كمونات العمل
Action Potentials
- وظيفة كمونات العمل والتيارات الكهربائية العاملة
في النقل العصبي، التيارات الكهربائية العاملة
Action Electrical Currents
- الأطوار الثلاثة للنقل العصبي
المستقبلات الحسية، عبقرية الخلق وجمال المخلوق
- النقل في المشابك العصبية
The Neural Conduction in the Synapses
- عقدة رانفييه، ضابطة الإيقاع
The Node of Ranvier, The Equalizer
- وظائف عقدة رانفييه
The Functions of Node of Ranvier
- وظائف عقدة رانفييه، الوظيفة الأولى في ضبط معايير الموجة العاملة
- وظائف عقدة رانفييه، الوظيفة الثانية في ضبط مسار الموجة العاملة
- وظائف عقدة رانفييه، الوظيفة الثالثة في توليد كمونات العمل
- في فقه الأعصاب، الألم أولاً
The Pain is First
- في فقه الأعصاب، الشكل.. الضرورة
The Philosophy of Form
- تخطيط الأعصاب الكهربائي، بين الحقيقي والموهوم
- الصدمة النخاعية (مفهوم جديد)
The Spinal Shock (Innovated Conception)
- أذيات النخاع الشوكي، الأعراض والعلامات السريرية، بحث في آليات الحدوث
The Spinal Injury, The Symptomatology
- الرَّمع
Clonus

اشتداد المنعكس الشوكي Hyperactive Hyperreflexia
تساع باحة المنعكس الشوكي الاشتدادي Extended Reflex Sector
الاستجابة ثنائية الجانب للمنعكس الشوكي الاشتدادي Bilateral Responses
الاستجابة الحركية العديدة للمنعكس الشوكي Multiple Responses
التنكس الفاليري، يهاجم المحاور العصبية الحركية للعصب المحيطي.. ويعف عن محاوره الحسية
Wallerian Degeneration, Attacks the Motor Axons of Injured Nerve and
Conserves its Sensory Axons
التنكس الفاليري، رؤية جديدة (Wallerian Degeneration (Innovated View)
التجدد العصبي، رؤية جديدة (Neural Regeneration (Innovated View)
المنعكسات الشوكية، المفاهيم القديمة Spinal Reflexes, Ancient Conceptions
المنعكسات الشوكية، تحديث المفاهيم Spinal Reflexes, Innovated Conception
خلقت المرأة من ضلع الرجل، رائعة الإيحاء الفلسفي والمجاز العلمي
المرأة تقرّر جنس وليدها، والرجل يدعى!
الروح والنفس.. عطية خالق وصنيعه مخلوق
خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس.. في المرامي والدلالات
تفاحة آدم وضلع آدم، وجهان لصورة الإنسان.
حواء.. هذه
سفينة نوح، طوق نجاة لا معراج خلاص
المصباح الكهربائي، بين التجريد والتنفيذ رحلة ألف عام
هكذا تكلم ابراهيم الخليل
فقه الحضارات، بين قوة الفكر وفكر القوة
العدة وعلة الاختلاف بين مطلقه وأرملة نواتي عفاف
تعذد الزوجات وملك اليمين.. المنسوخ الأجل
الثقب الأسود، وفرضية النجم الساقط
جسيم بار، مفتاح أحجية الخلق
صبي أم بنت، الأم تقرّر!
القدم الهابطة، حالة سريرية
خلق حواء من ضلع آدم، حقيقة أم أسطورة؟
شلل الصفيحة العضدية الولادى Obstetrical Brachial Plexus Palsy
الأذيات الرضية للأعصاب المحيطية (١) التشریح الوصفي والوظيفي
الأذيات الرضية للأعصاب المحيطية (٢) تقييم الأذية العصبية
الأذيات الرضية للأعصاب المحيطية (٣) التدبير والإصلاح الجراحي
الأذيات الرضية للأعصاب المحيطية (٤) تصنيف الأذية العصبية
قوس العضلة الكاتبة المدورة Pronator Teres Muscle Arcade
شبيهة رباط Struthers-like Ligament ...Struthers
عمليات النقل الوترية في تدبير شلل العصب الكعبري Tendon Transfers for Radial Palsy
Who Decides the Sex of Coming Baby? (Concise)
من يقرّر جنس الوليد (مختصر)
ثالوث الذكاء.. زاد مسافر! الذكاء الفطري، الإنساني، والاصطناعي.. بحث في الصفات والمآلات

المعادلات الصّفريّة .. الحدائث، مالها وما عليها

متلازمة العصب بين العظام الخلفي *Posterior Interosseous Nerve Syndrome*

المُنْعَكْس الشُّوكِيّ، فيزيولوجيا جديدة *Spinal Reflex, Innovated Physiology*

المُنْعَكْس الشُّوكِيّ الاِشْتِدَادِيّ، في الفيزيولوجيا المرضيّة *Hyperreflex, Innovated*

Pathophysiology

المُنْعَكْس الشُّوكِيّ الاِشْتِدَادِيّ (١)، الفيزيولوجيا المرضيّة لقوّة المنعكس *Hyperreflexia, Pathophysiology of Hyperactive Hyperreflex*

المُنْعَكْس الشُّوكِيّ الاِشْتِدَادِيّ (٢)، الفيزيولوجيا المرضيّة للاستجابة ثنائيّة الجانب للمنعكس

Hyperreflexia, Pathophysiology of Bilateral- Response Hyperreflex

المُنْعَكْس الشُّوكِيّ الاِشْتِدَادِيّ (٣)، الفيزيولوجيا المرضيّة لانتساع ساحة العمل *Extended*

Hyperreflex, Pathophysiology

المُنْعَكْس الشُّوكِيّ الاِشْتِدَادِيّ (٤)، الفيزيولوجيا المرضيّة للمنعكس عديد الإستجابة الحركيّة

Hyperreflexia, Pathophysiology of Multi-Response hyperreflex

الرّمع (١)، الفرضيّة الأولى في الفيزيولوجيا المرضيّة

الرّمع (٢)، الفرضيّة الثّانية في الفيزيولوجيا المرضيّة

خلق آدم وخلق حواء، ومن ضلعه كانت حواء *Adam & Eve, Adam's Rib*

جسيم بار، الشّاهد والبصيرة *Barr Body, The Witness*

جدليّة المعنى واللامعنى

التّدبير الجراحيّ لليد المخليّة *Surgical Treatment of Claw Hand (Brand Operation)*

الانقسام الخلويّ المتساوي الـ *Mitosis*

المتّمات الغذائيّة الـ *Nutritional Supplements*، هل هي حقاً مفيدة لأجسامنا؟

الانقسام الخلويّ المُنصّف الـ *Meiosis*

فيتامين د *Vitamin D*، ضمانته الشّباب الدّائم

فيتامين ب٦ *Vitamin B6*، قليله مفيد.. وكثيره ضارٌ جدّاً

والمهنة.. شهيد، من قصص البطولة والفداء

الثّقب الأسود والنّجم الذي هوى

خلق السّموات والأرض، فرضيّة الكون السّديميّ المتّصل

الجوّاريّ الكُنس الـ *Circulating Sweepers*

عندما ينقسم المجتمع.. لمن تتجملين هيفاء؟

التّصنيع الذاتي لمفصل المرفق *Elbow Auto- Arthroplasty*

الطّوفان الأخير، طوفان بلا سفينة